الأستاذ رشيد بن مالك

المحاضرة الثامنة في مادة السيميولوجيا

طلبة السنة الثالثة ليسانس

شعبة الاتصال

3. مدخل منهجي لدراسة كليلة و دمنة

فضلنا في هذا البحث أن نضع قيد الدرس والتحليل **كليلة ودمنة** و تحديدا **نص النصيحة التي أسداها الفيلسوف الهندي للملك دبشليم** .إن هذا الاختيار صادر عن قناعتنا بأن حكايات **كليلة ودمنة** لا يمكن أن تفهم إلا إذا قرأنا قراءة معمقة النصيحة التي نعتبرها **النص/الإطار** الذي يغذي دلاليا الحكايات. ومن ثم، فإن أي تأويل دلالي لهذا النص السردي المروي على لسان الحيوان، يخرج عن النص/ الإطار و محاوره الدلالية الكبرى ،سيضلل القارئ لا شك، وينقله إلى مواقع مهزوزة تفتقد إلى القواعد المؤسسة التي ينهض عليها النص في شموليته. ومن الواضح أن النص الإطار سيعمل، كما سنبين ذلك في أثناء التحليل، على تجلية مجموعة من القيم سيسخرها بيدبا، امتثالا في ذلك لرغبة الملك، لصناعة عالم دلالي تنهض عليه الحكايات.

و قد قسمنا النص الذي يتوزع عبر: **قبل، في أثناء، بعد** إلى ثلاث مقطوعات أساسية:

① تتحدد المقطوعة الأولى استنادا إلى الإحداثيات الزمنية والفضائية بـ **قبل ذهاب بيدبا إلى القصر**.

②يتصدر المقطوعة الثانية **انتقال بيدبا إلى القصر، وإسداء النصيحة للملك.**

③و تبدأ المقطوعة الثالثة **بعد تبليغ بيدبا الرسالة للملك**.

و على الرغم من أن هذا التقطيع اعتباطي لتداخل المستويات وتعالقها في الوقت نفسه، فإنه سيمكن القارئ من درك المحطات الأساسية التي تبرز، من جهة، إنجازات بيدبا في رحلته العلمية الكشفية بكل تفاصيلها ومنعرجاتها و محنها، ومن جهة ثانية، سوء تقدير دبشليم لهذه الإنجازات،و اعترافه في النهاية،بعد ارعوائه، بقيمتها،و أهميتها في تشييد فعل سياسي يحتكم إلى العقل.

حتى نوضح الآلية التي يشتغل بها **الخطاب الحجاجي** في النص، ينبغي أن نسلم في البداية بأن الموضوعات السيميائية(**كليلة و دمنة** على سبيل المثال) المتنقلة من هيئة(المتلفظ) إلى أخرى(الملفوظ له) ترتهن في وجودها إلى فعل تلفظي.من هذه المنطلقات، و ضمن هذا الإطار، سنسعى إلى دراسة نص النصيحة .

1.3التحريك/الإستراتيجية الخطابية في النص

تشكل النصيحة رهانا حقيقيا لبيدبا الذي **يتحمل لوحده مسؤولية تغيير النظام السياسي من الداخل بطرق سلمية** . و يهدف هذا الفعل إلى رد الأمور إلى سابق عهدها، وتشييد الاستيثاق بين

الملك والرعية .و قد جاء وصول دبشليم إلى سدة الحكم نتيجة لتمرد الخاصة والعامة على ملك سابق أوصله الإسكندر ذو القرنيين دون استشارة الرعية إلى السلطة مباشرة بعد غزو الهند .ولما كان فعله السياسي معبأ لإذلال الرعية، فإن هذا الملك الذي يعد من ثقات الإسكندر سرعان ما عزل. ويبدو تمليك الرعية لدشليم مسيج في إطار عقد ائتماني تتم بموجبه إقامة عالم تحكمه مجموعة من القيم جاءت لتسد وضعية افتقار سابقة ناتجة عن سوء التسيير. وبعد أن استوسق له الأمر، و استقر له الملك، وأحكم سيطرته على الرعية، يخرق دبشليم العقد فيحدث بذلك هوة عميقة بينه وبينها. نلمس ذلك في الأدوار الجديدة التي اضطلع بها دبشليم :**طغى، و بغى و تجبر و تكبر**[14].و قد حركته هذه السطوة للقيام بأفعال عدوانية: **عبث بالرعية، استصغر أمرهم وأساء السيرة فيهم**[15]. في هذه اللحظة السردية، يفقد الراوي الأمل في تغيير الوضع، وحتى في إمكانية التفكير في اقتراح البدائل والخروج من هذا المأزق الذي يهدد الإنسان في وجوده؛ و كل المؤشرات السردية التي ساقها ترشحه للتدهور، وبقائه على النحو الذي ابتغاه دبشليم :"**فهابته الرعية،و كان لا ترتقي حاله إلا ازداد عتوا**"[16]. ولئن كانت الهيبة تلغي كل القنوات التي يمكن أن ترسى لإقامة التواصل مع الملك والحديث إليه عن أمور الملك، فإن امتلاك القدرة على مقاومتها، و مواجهة الملك يعد أمرا مستحيلا لأن ذلك سيؤدي حتما إلى الهلاك:

"غير أننا نعلم أن السباحة في الماء مع التمساح تغرير
ومن دخل على الأسد في غابته، لم يأمن من وثبته
وهذا الملك لم تفزعه النوائب، و لم تؤدبه التجارب
ولسنا نأمن عليك و لا على أنفسنا سطوته وإنا نخاف
عليك من سورته و مبادرته بسوء إذا لقيته بغير ما يحب"[17].

وبحكم امتلاك الفيلسوف بيدبا للمعرفة، ومن موقعه كـ **مرسل/مقوم**، سيدرك أن دبشليم المفوض لتسيير أمور الرعية لم ينفذ برنامجه طبقا للالتزامات المتضمنة في العقد الذي يربطه ضمنيا بالرعية باعتبارها المرسل الحقيقي الذي أزاح الملك السابق وسلم مقاليد الحكم لدبشليم. ومن الواضح أنه من حق الرعية أن تنظر فيما إذا شرف الملك التزاماته أم أنه خرقها في أثناء تسيير الفعل السياسي.

إن هذه الفرضية لا تستقيم لأن الملك صنع نظاما مغلقا لا يسمح للرعية بتقويم البرامج التي تفرزها الممارسة السياسية. فهي بين أمرين: السكوت عما يجري أم التدخل في مسألة الملك، والمخاطرة

بالنفس. ومن ثم ،فإن النزوع إلى الاختيار الثاني سيفضي إلى مواجهة سياسية بين قوتين غير متكافئتين: القوة الأولى مجسدة في دبشليم الذي يملك السلطة السياسية والسلطة العسكرية .أما القوة الثانية التي يقف وراءها بيدبا فإنها تحتكم إلى **العقل والأسلوب الحجاجي** في حل المشاكل الكبرى. على هذا الأساس، يعد امتلاك بيدبا للمعرفة معطى ثابتا في النص :

"رجل فيلسوف(...)، فاضل حكيم، يعرف بفضله ويرجع في الأمور إلى قوله"[18]. ونظرًا لقناعته بأن **" الوحيد في نفسه والمنفرد برأيه فهو ضائع ولا ناصر له"**[19]، **سينظم رد فعله، على المستوى السردي، بتبني استراتيجية تهدف إلى** جمع تلاميذه لمشاورتهم، وتحريكهم للانخراط في فعل جماعي تكون الغاية منه حمل الملك، بالطرق السلمية، على **تغيير أسلوب الممارسة السياسية، وإحداث وصلة حقيقية بالرعية**. وتأتي فكرة التحالف التي اقترحها على تلاميذه من موقع الوشائج المتينة التي تربطه بهم:

"وقد جمعتكم لهذا الأمر: لأنكم أسرتي ومكان سري
وموضع معرفتي، وبكم أعتضد، وعليكم أعتمد"[20] .

فهو يحدد لهم من خلال صورة الأسرة انتماءه من ناحية، وانصهار أناه من ناحية ثانية في مجموعة تحكمها قرابة علمية مبنية على عقد ثقة. على هذا الأساس، يثمن بيدبا الفعل العلمي الناشئ من فضاء تستثمر فيه القيم العلمية، وتصنع فيه المعرفة. ومن هذا الموقع أيضًا، سيستمد القدرة الكفيلة بقلب موازين القوى على مستوى هرم السلطة. لكل هذه الاعتبارات، يسعى بيدبا بخطابه إلى تعبئة تلاميذه بوصفهم النخبة المثقفة الفاعلة في المجتمع الهندي. وهي تعبئة قائمة، على المستويين التداولي والعرفاني، على الإقناع بالحجة والاستدلال المنطقي:

" على أن العاقل قد يبلغ بحيلته ما لا يبلغ بالخيل والجنود"[21].

وكما **استطاعت** القبرة أن تلحق أضرارا جسيمة بالفيل المتسلط من خلال تحريكها للغربان(فقأ عيني الفيل) والضفادع(انتقالها إلى وهدة وإحداث النقيق لحمله على الشرب والسقوط)، وكما استطاعت الأرانب بفضل ذكاء فيروز أن تدفع الفيل إلى التوبة من خلال تحريك صورة القمر، فإن بيدبا يملك من القوة(القدرة العقلية) التي تجعله يحول مجرى الفعل السياسي للملك لصالح الرعية. بهذا الخطاب الحجاجي يسعى بيدبا إلى إقناع تلاميذه رغبة منه في حملهم على الانخراط في برنامج يرتكز أساسا على البعد العرفاني dimension cognitive في مواجهة الملك:

" ولا يمكن مجاهدته بغير ألسنتنا"[22].

و لئن كانت مسألة التحالف مع الأطراف الأجنبية للقيام بهجوم عسكري على الملك غير واردة:

"و لو ذهبنا إلى أن نستعين بغيرنا لم تتهيأ لنا معاندته" [23]،

فإن فكرة الجلاء عن الوطن غير واردة أيضا :

" و ليس الرأي عندي الجلاء عن الوطن"[24].

إن قراءة بيدبا في التفاصيل الدقيقة للبرنامج السياسي للملك وتصميمه على إحكام قبضته على الرعية لشل ليس فقط قدرتها على تحقيق طموحاتها المشروعة، بل رغبتها أيضا في تغيير الفعل السياسي للملك بما يضمن حقها في الدفاع عن القيم القمينة بتحقيق **القفزة النوعية السلمية** المنشودة من وضع مضطرب تلغى فيه كل قنوات الحوار إلى وضع مستقر تستجيب فيه السلطة السياسية لحق الرعية في التعبير، جعله يقوم تقويما سلبيا ممارسته للسلطة التي تجسدت عبر أفعال تنصهر في برنامج أساسي موجه ضد وجود الرعية وحقها في الحياة، ويبين الحدة التي بلغها الملك في تعامله مع الرعية. ويتجسد هذا البرنامج عبر مجموعة من الأفعال:

طغى، وبغى، وتجبر وتكبر(...)،عبث بالرعية،

استصغر أمرهم و أساء السيرة فيهم [25]،

تعكس طبيعة تعامل الملك مع الرعية و علاقته بها المتوترة و المبنية على التسلط، والظلم، والتمادي فيه خرق الحقوق الطبيعية للرعية، والسعي بالفساد خارج القوانين المنظمة للممارسة السياسية.

وإذا انتقلنا إلى المستوى الخطابي، فسنلاحظ أن هذا البرنامج يلقى تجلياته في مسارين صوريين. يتضمن الأول مجموعة من الصور تحيل وحداتها المضمونية على حاكم لا يمتثل في سلوكه لمقتضيات النظام الأكسيولوجي الذي يحتكم إليه كل فرد في المجتمع . ويتشكل هذا المسار من الصور الآتية :**رداءة السيرة ، سوء السيرة ، قبح الطريقة، المبادرة بالسوء**.

أما المسار الثاني الذي يتشكل من صور **السطوة، والسورة، والظلم للرعية، والخروج عن العدل ولزوم الشر**، فإنه يعمل على توصيف ممارسة دبشليم للسلطة. ولئن كان بانيا هذه الممارسة على القمع والبطش، فإنه استطاع، على المستوى الهووي، وبصورة مؤقتة، أن يوتر نفوس الرعية بحالات من الخوف الجماعي:**"فهابته الرعية"**[26]، ومن ثم شل قدرتها على القيام بأي محاولة تهدف إلى قلب نظامه، وإبطال مفعول تحريك بيدبا للتلاميذ بوصفهم عاملا جماعيا.

وفي الاتجاه المعاكس تماما لهذه المواجهة العنيفة التي مثلت الخيار الوحيد للسلطة، فإن الفيلسوف سعى إلى تحريك الخاصة من الرعية، وإقناعها بتفادي المواجهة، وحملها لا على التسليم بمشروعية خلع الملك، ولكن **بضرورة تحمل المسؤولية** للحديث إليه في **أمور الملك**. وقد بدأت تتضح معالم هذا البرنامج في شكله المضمر في اللحظة السردية التي مارس فيها بيدبا فعله التأويلي في القيم التي أفرزها البرنامج السياسي الذي نفذه الملك. وأفضى هذا التأويل إلى تقييم سلبي حركه للقيام ببرنامج مضاد يكون الهدف منه ممارسة الفعل الإقناعي على الملك، وحمله على الانخراط في نظام من القيم يحتكم إليه تسيير الفعل السياسي.

لكل هذه الاعتبارات، وللخروج من الأزمة السياسية وكسب رهان الصراع الذي افتعله دبشليم في انقلابه على الرعية، سعى بيدبا–كما ألمحنا إلى ذلك أعلاه–على الصعيد السردي، إلى تحريك الفاعل الجماعي المتمثل في التلاميذ لتأسيسه مرسلا محركا يمارس سلطته المعرفية على الملك لحمله على القيام بتنفيذ برنامج سياسي ينهض أساسا على المشاورة، والحوار، والعدل، والإنصاف في حل المشاكل التي يواجهها المجتمع الهندي. وعلى الرغم من أن التلاميذ اقتنعوا بصدق خطابه الذي يلقى توافقا مع طموحاتهم، ورغبتهم في التغيير، ونبل القيم التي يدافع عنها بيدبا، والرامية إلى إعادة الاستقرار، فإنهم رفضوا الانخراط في مشروعه خوفا من بطش دبشليم وتأمينا لحياتهم. وهكذا، فإن خوفهم من رد فعل فعله، وتوقع الهزيمة، والشعور بالقلق من خطر وشيك الوقوع يودي بحياتهم أبطل مفعول رغبتهم ، و عطل قدرتهم ،و قلل من أهمية مواجهة دبشليم بالحيلة (المعرفة).